الحلقة 8

إعداد: هشام المنشاوي

تمنت أن يسلم أبيها فحقق الله لها أمنيتها

أم حبيبة هاجرت إلى الحبشة.. وزوجها النجاشي للرسول

الإسلام أكرم المرأة أيما إكرام، بنتاً كانت زوجاً أو أمّاً، أو أختاً، وقد ذكر القرآن الكريم عدداً من النساء اللائي كان لهن دور بارز في تاريخ البشرية كحواء وأم موسي وزوج فرعون و مريم بنت عمران، ونزلت آيات من القرآن في عدد من النساء وأفردت من القرآن للنساء سورتان هما سور النساء وسور الطلاق، وتحدث القرآن عن المؤمنات اللاتي جئن إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم مبايعات أو مهاجرات كما بينته صورة الممتحنة، وما ذاك إلاّ لأن للمرأة دوراً كبيراً في المجتمعات .

إن المرأة المسلمة تقع تحت ضغوط تكاد تبعدها عن منابع الإسلام الأولي وتحول بينها وبين تفهم رسالته، لهذا كان علي المرأة المسلمة: أن تتعرف علي نساء الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم، بمعرفة سيرهن وأخبارهن، لتدرك الحال التي كن عليها ولتجعل منهن قدوة حسنة ومشاعل تنير أمامها الطريق وستجد الأخت المسلمة بين دفتي هذا البحث أربعين نموذجاً من سير الصحابيات الجليلات اللاتي صحبن فجر الدعوة وشاركن فيها وارتفعن بالإسلام إلي آفاق سامية ما كن يستطعن الوصول إليها لو لا صدق الإيمان وإخلاص العمل، لقد كانت كل واحدة منهن مثالاً قديراً لمن أيّد الدعوة وحمل الراية، ودافع عن الحق ووقف كالطود الشامخ من حول رسول الله صلي الله علين وسلم يؤيده ويناصره وعسي أن يكون في هذا السلسلة من الحلقات التي تقدمها جريدة "الوسط" ما يقود خُطا النساء والمسلمين علي طريق الإيمان، ومما يذكرهن بحياة تلك النسوة اللائي هانت عليهن في سبيل الله المكاره وأفضي يقين الإيمان إلي قلوبهن وسيطر علي نفوسهن وعقولهن، فآثرن الآجل علي العاجل والدائم علي الفاني، ففزن برحمة الله ورضوانه.

المرأة في عصرنا هذا قد إبتعدت كثيراً عن الكتاب والسنة وما كانت عليه الصحابيات رضي الله عنهن ونساء فجر الإسلام اللاتي لا يتحدثن مع أجنبي إلا من وراء حجاب في الأمور الضرورية ولا يخضعن بالقول حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض .

اذا نظرنا لأي مجتمع في الوجود نجد بأنه يتكون من الرجال والنساء، ولكل دوره ومكانته الإنسانية والقيادية والاجتماعية وعلى هذا فإن المجتمع الذي كوّنه النبي صلى الله عليه وسلم كان مجتمعا مثاليا وساميا بمعنى الكلمة، فهو المربي الرباني الأول، والصحابة رباهم القرآن التربية الإيمانية الكاملة التامة، فأخلصوا لدينهم وأحبوا مربيهم، فكانت الإنجازات الباهرة في فترة محدودة وعلى جانب آخر برز لنا دور النساء والمساند لدور الرجال، إما أمهات أو زوجات أو بنات أو أخوات تربوا على مائدة الرسول صلى الله عليه وسلمن وكانوا خير معين للصحابة الكرام في جميع المجالات: العلمية منها، والجهادية (القتالية)، والطبية...فظهرت الفقيهات منهن والمقاتلات والطبيبات...وعلى كافة الأصعدة، وتميزن برجاحة العقل وصواب الرأي، فهن بهذا يستحقنَّ بأن يكنَّ قدوة ساطعة عبر التاريخ لمن بعدهن. فجاء هذا الكتاب، ليسلط الضوء على النساء الجليلات اللاتي ساندن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين . لقد نزل الإسلام دينًا حسنًا يُدافع عن المظلوم دون النظر إلى جنسيته وعرقه وجنسه ومنشئه فالإنسان هو الإنسان من أيّ أرض كان، وما زال يعتني بالمرأة حتى كانت وصية رسول الله –صَلى اللّه عليه وسلم– قبل موته لأصحابه فهنّ القوارير ولكن مع الانفتاح العالمي والتأثر بالعالم الغربي بدأت تتشكل حول العيون الإسلامية بعض الغشاوة في أنّ القانون الغربي يرفع من شأن المرأة .

◆ رأت زوجها وأبيها وأخيها قتلي في المعركة فقالت: ما فعل رسول الله؟

◆ تحملت أذى قومها وهجر أهلها والغربة عن وطنها لتحيي حياة الإيمان والإسلام

◆ عادت إلى مكة عقب فتح خيبر بعد أن بقيت في الحبشة ثلاثة عشر عاماً

هاجرت إلى الحبشة

اعطت صاحب بشرى زواجها من الرسول سوارين

أم حبيبة من هي ومع من هاجرت إلى الحبشة، وما هي المأساة التي وقعت فيها في تلك الديار ؟ أيها الأخوة الكرام، دروس الصحابيات الجليلات رضوان الله تعالى عليهن أجمعين، ومع السيدة حبيبة بنت أبي سفيان، وهي رملة بنت أبي سفيان زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، أسلمت قديماً، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، ولها مأساة كبيرة جداً، حدث عنها أخواها الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وعنبسة، وابن أخيها عبد الله بن عتبة، وعروة بن الزبير . كان لأم المؤمنين أم حبيبة مكانة عالية، وحرمة فائقة، ولمكانتها قيل لأخيها معاوية: أنت خال المؤمنين، لأن أخته أم المؤمنين، وهو أخوها، فكان معاوية يدعى خالَ المؤمنين لمكانتها العلية عند المسلمين .

يعني قبل أن أتابع الحديث، المرأة تستطيع أن تصل عند الله إلى أعلى مكانة، ولا تمنعها أنوثتها أن تكون ولية لله، ولا يمنعها كأنثى أن تكون عالية القدر عند الله، ولا يمنعها أن تسبق آلاف الرجال، هذه حقيقة .

هجرة المستضعفين

لما اشتد الأذى على المسلمين من المشركين في مكة، وأذن النبي عليه الصلاة والسلام للمسلمين المستضعفين بالهجرة فراراً بدينهم إلى الحبشة، هاجرت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله مع من هاجر من الصحابة إلى الحبشة، وتحملت هذه الزوجة الكثير مما تحمله الصحابة من أجل إسلامهم .

تحملت أذى قومها، وتحملت هجر أهلها، والغربة عن وطنها وديارها، كل ذلك لتحيي حياة الإيمان والإسلام بعيداً عن الشرك والعصيان، وحينما استقرت في الحبشة آمنة مطمئنة، فاجأتها محنة شديدة وعصيبة، تلك المحنة هي ردة زوجها عن الإسلام، وتنصره بعد أن هداه الله للإسلام، إنها محنة منكرة، الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، والنجاشي أعلن إسلامه، وأسلم كبار البطارقة، وهذه زوجها تنصر، وشرب الخمر وعاقرها حتى مات من شرب الخمر، هل هناك محنة أقصى من هذه المحنة؟ أقرب رجل إلى المرأة زوجها، زوجها أصبح يعاقر الخمر، من البطولة إلى معاقرة الخمر .

بماذا كلف رسول الله النجاشي، ومن وكلت أم حبيبة في تزويجها، وما موقف والدها من هذا الزواج ؟

أخرج ابن سعد عن ابن عمر بن سعيد الأموي، قال: قالت أم حبيبة:

رأيت في المنام كأن زوجي عبيد الله بأسوأ صورة ففزعت، فأصبحت فإذا به قد ترك دينه، فأخبرته بالمنام فلم يحفل به، وأكبّ على الخمر حتى مات من شرب الخمر، فأتاني آت في نومي، فقال: يا أم المؤمنين

ربنا جلّ جلاله أحياناً، يدعم الإنسان برؤيا صادقة، كلمة (يا أم المؤمنين) أي ستغدو زوجة النبي عليه الصلاة والسلام .

فما هو إلا أن انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول النجاشي يستأذن لي، فإذا هي جارية يقال لها أبرهة، فقالت:

((إن الملك يقول لك: وكِّلي من يزوجك؟ فأرسلت إلى خالد بن سعيدَ بن العاص بن أمية فوكلته، فأعطيت أبرهة على بشارته سوارين من فضة، فلما كان العشي، أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب، ومن هناك من المسلمين، فحضروا، وخطب النجاشي، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، وتشهد، ثم قال:

أما بعد؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليّ أن أزوجه أم حبيبة، فأجبت، وقد أصدقتها عنه أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير، ثم خطب خالد بن سعيد، فقال: قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله، وزوجته أم حبيبة، وقبض الدنانير، وصنع لهم النجاشي طعاماً .

قالت أم حبيبة: فلما وصل إليّ المال أعطيت أبرهة منه خمسين ديناراً، فرددتها إليّ، وقالت: إن الملك عزم عليّ بذلك، –يعني يبدو أنها صادقة– أبلغت الملك أنها أعطتها سوارين من فضة، فزجرها، وقال: أرجعي كل ذلك، وردت عليّ ما كنت أعطيتها أولاً، ثم جاءتني من الغد؛ بعود من الطيب، وورس، وعنبر، فقدمت به معي على رسول الله .

قدمت لها هدية هذه الجارية– ولما بلغ أبا سفيان والدها، وكان مشركاً، أن النبي صلى الله عليه وسلم نكح ابنته، قال: هو الفحل لا يجدع أنفه

أي أنه الكفء الكريم الذي لا يعاب ولا يرد .

متى عادت أم حبيبة إلى وطنها، وكيف استقبل النبي المهاجرين بعد طول هذه الغربة، وكيف كان استقباله لأم حبيبة وكذلك زوجاته ؟

عادت هذه المهاجرة عقب فتح النبي خيبر، يعني بقي هؤلاء الصحابة في الحبشة ثلاثة عشر عاماً؛ يصلون، ويصومون، ويعبدون الله عز وجل، كم هي الحوادث صعبة، إنسان مبعد عن أهله ثلاثة عشر عاماً، ولم يكن ذنبه إلا أن يقول: ربي الله .

عادوا مع جعفر بن أبي طالب ومن معه، وقد سرّ النبي عليه الصلاة والسلام أيما سرور بمجيء هؤلاء الصحابة بعد غياب طويل، ومعهم الزوجة الصابرة، الطاهرة الكريمة، إنهم خرجوا من مكة فارين بدينهم من الشرك، واليوم يعودون، وأمر الإسلام يعلو، وسلطانه يمتد، فلا خوف من ظلم، ولا إرهاب، وعندما حلّوا بالمدينة، استقبلهم النبي عليه الصلاة والسلام مسروراً مبتهجًا، وهو يقول: والله لا أدري بأيِّهم أفرح؛ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟.

هناك إشارة لطيفة لا بأس من ذكرها: عن أبي موسى الشعري، قال:

كان أناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس، وكانت مع مهاجري الحبشة على حفصة زوج النبي زائرة، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: هذه أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية، هذه البحرية، قالت أسماء: نعم، قال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم فغضبت، وقالت: كلا، والله كنتم مع رسول الله؛ يطعم جائعكم، ويرشد جاهلكم، وكنا في أرض العداء البغضاء، وذلك في الله، وفي رسول الله، وايم الله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت لرسول الله، وقالت له: والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه، –أنت قلت: سبقناكم بالهجرة، أنا سأذهب إلى النبي ، وأنقل ما قلته لي، فإن أقر قولك قبلته، وإن لم يقره، سأنقله إليك دون زيادة– . فلما جاءت النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا، فقال عليه الصلاة والسلام: ماذا قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا، فقال عليه الصلاة والسلام: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان

أنتم هاجرتم مرتين مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة، اعتزاز الإنسان بإيمانه، سيدنا عمر قال كلمة: نحن سبقناكم بالهجرة، والنبي عليه الصلاة والسلام جبار الخواطر، من عظمة هذا النبي العظيم؛ أن كل صحابي من صحابته، كان يظن أنه أقرب الناس له، هذه بطولة، الصغار أحياناً يخصون بعض الناس باهتمامهم، يقربون لهم بعض الأشخاص، ويهملون الباقين، هذا شيء من الفجاجة في قيادة الدعوة، أنت للكل .

وما أن وصلت أم حبيبة رضوان الله عليه إلى المدينة بعد تلك الغربة الطويلة والأعجوبة المريرة، حتى استقبلها النبي عليه الصلاة والسلام بالسرور والبهجة، وأنزلها إحدى حجراته بجوار زوجاته الأخريات، واحتفل نساء المدينة بدخول أم حبيبة بنت سفيان بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهنَّ يحملن إليها التحيات، والتبريكات، والتهاني، والأمنيات بهذا الزواج المبارك، وقد أولم خالها عثمان بن عفان وليمة حافلة، نحر فيها الذبائح، وأطعم الناس اللحم فرحًا وبهجة بهذا الزواج الميمون، واستقبل أمهات المؤمنين هذه الشريكة الكريمة بالإكرام والترحاب، ومن بينهن صفية العروس الجديدة التي لم يمض على عرسها أيام معدودات، لأنها جاءت من خيبر، وقد أبدت السيدة عائشة استعداداً لاستقبال الزوجة الجديدة التي لم تثر فيها حفيظة الغيرة حين رأتها، وقد قاربت سن الأربعين، وتعيش أم حبيبة بجوار صواحبها الضرائر بكل سعادة وأمان .

ما هو سبب مجيء أبي سفيان إلى المدينة، وهل حقق مراده عند ابنته لهذا السبب الذي جيء من أجله، ومتى أسلم أبو سفيان، وهل سرت ابنته في ذلك؟

حضر أبو سفيان إلى المدينة، صلح الحديبية فيه شرط، وهو في ظاهره لصالح قريش، أما في الحقيقة فقد انقلب عليهم، فمن خرج من المسلمين إلى مكة مرتداً خذوه، أما من جاءنا منكم مسلماً نرده، ليس هناك تكافؤ، فهذا الشرط لم يقبله سيدنا عمر، وقال:

علام نعطي الدنية في ديننا؟ قال له سيدنا الصديق: الزم حجرك، هو رسول الله، –هذا الشرط من غرائب الصدف، فهو في ظاهره مهانة، أما عملياً فهؤلاء الذين جاؤوا، وردَّهم النبي، شكَّلوا عصابة، قطعوا الطريق على أهل مكة، فضجرت تجارتهم، لأن الطريق غير آمن– فجاء أبو سفيان إلى النبي يرجوه، ويتوسل إليه أن يلغي هذا الشرط

–أيّ واحد أسلم من عندنا فاقبلوه، ليس هناك مانع– فالنبي لم يرض، –هذا هو سبب مجيء أبي سفيان إلى المدينة– .

لقد حضر أبو سفيان والد أم حبيبة المدينة، يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يمد في أجل الهدنة التي تمت المصالحة عليها في الحديبية، فيأبى عليه النبي هذا الطلب، أراد أبو سفيان أن يستعين على تحقيق الطلب بابنته زوجة النبي، فدخل دار أم حبيبة، وفوجئت به يدخل بيتها، وما رأته من خمسة عشر عاماً، ولم تكن قد رأته منذ أن هاجرت إلى الحبشة، فلاقته بالحيرة، فلا تدري أترده لكونه مشركاً، أم تستقبله لكونه أباً؟ وأدرك أبو سفيان ما تعانيه ابنته، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه، ليجلس على فراش رسول الله، فما راعه إلا وابنته، تجذب الفراش من تحته، لئلا يجلس عليه، فسألها بدهشة: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية، لقد أصابك بعدي شرٌّ، وخرج من بيتها خائب الرجاء .

وبعد أن خرج أبو سفيان من بيت ابنته، توجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقد علم من أمر ابنته ما علم، فكلمه أبو سفيان في العهد فلم يجبه بشيء، فأجابه علي فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه به، –له هيبة كبيرة، صلى الله عليه وسلم– فقال أبو سفيان: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني، قال: والله لا أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، –أي أن الناس بمكة بجواري، أي بحمايتي– ثم الحق بأرضك، –يعني أجر أهل مكة– قال: أو ترى هذا مغنياً عني شيئا، قال: لا والله، لا أظنه مغنياً عنك شيئاً، ولكنني لا أجد لك غير ذلك، – طلب من النبي فرفض، سيدنا الصديق رفض، سيدنا عمر رفض، سيدنا علي قال شيئاً لا يقدم ولا يؤخر: أجر أهل مكة– .

فذهب أبو سفيان حتى وقف في مسجد النبي، والناس مجتمعون للصلاة، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يجبه بشيء، ولم يردّ عليه الصحابة بكلمة، فلما قدم على قريش، أخبرهم بما جرى معه، وأنه جاء علياً، فوجده ألين القوم، وقال عليّ شيئًا صنعته، فو الله لا أدري هل يغني هذا شيئاً أم لا؟ قالوا : وبم أشار عليك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك والله إذا زاد الرجل أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك، يعني عاد خائباً، ما حقق شيئاً .

أم حبيبة لما نقضت قريش عهدها مع رسول الله، لم يكن من أم حبيبة لأبيها وأخيها أي عون أو مساعدة، إلا أنها تدعو الله بالهداية لأبيها وقومها، ولعل نساء النبي عليه الصلاة والسلام راقبنها، وهي في موقفها ذاك الحرج، ترى جيش رسول الله يتأهب، ليأخذ قومها على غرة، ومكة لا تزال في حيرة من الأمر، وأبوها يحمل إلى قريش خيبة الرجاء، والحقيقة هذا موقف صعب، أبوها وقومها وزوجها النبي، وكما يقول كتاب السيرة: لا تراهم أغلى عليها من المسلمين، وهي التي هجرت أهلها وقومها ثلاثة عشر عاماً في الحبشة فرارًا بدينها من أذاهم– .

ولما تم فتح مكة، وطارت البشرى إلى أهل المدينة بنصر الله والفتح، وما تسامع الناس بما كان من لقاء النبي بأبي سفيان، وقد أجاره العباس، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم معه، حيث قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال أبو سفيان: بَأبي أنت وأمي؛ ما أحلمك، وما أكرمك، وما أوصلك، وما أحكمك، –وأبو سفيان زعيم قريش، وأحد أكبر قادتها، يرى أن النبي في أعلى مكان من الحكمة، والكرم، والرحمة، والصلة– قال : بأبي أنت وأمي؛ ما أحلمك، وما أكرمك، وما أحكمك، وما أوصلك، والله إني لظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً عنّا .

حسب اعتقاده لا إله إلا الله– فقال عليه الصلاة والسلام: ويحك يا أبا سفيان، أم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال أبو سفيانَ: بأبي أنت وأمي؛ ما أحلمك، وما أكرمك، وما أوصلك، أما هذه فو الله إنه لفي النفس منها حتى الآن شيء .

فزجره العباس على مقالته هذه زجراً قاسياً، وقال: ما لبث أبو سفيان إلا أن أعلن إسلامه، أسلم في وقت متأخر جداً بعد أن حارب النبي عشرين عاماً، وبعد أن كان لا بدّ له أن يسلم فأسلم .

طارت أصداء هذا الحدث الجلل المبارك، حتى بلغ سمع أم حبيبة، فرحتْ فرحاً شديداً ، وشكرت الله تعالى أن حقق لها أمنيتها ورجاءها في إسلام أبيها وقومها، وكانت رضي الله عنها، قد رأت أنه قد أزيح عن كاهلها عبء الحزن، على عدم إسلام أبيها وقومها، وقد اعتبر يوم الفتح، يوم فتح لفرحتها، وسرورها، وسعادتها، بنجاة أبيها من الخلود في النار

بعض الأخوة الكرام، عندهم حرقة على أوليائهم، وعلى آبائهم، أنا أكبرهم عليها كثيراً، الأب عمره ستون سنة لا يصلي، وبعيد عن الدين، وابنه متألم، يرى أباه هكذا .

استضافها النجاشي في قصره مع المؤمنين

بقيت في الحبشة 13 عاماً

ماتت على دين الله